مجلة المقدمة للدراسات الإنسانية والاجتماعية المجلد(05)، العدد (02)، السنة (2020)، ص 46-55
ISSN : 2602-5566 EISSN : 2716-8999

النصرانية الأولى وارهاصات الصراع الديني ببلاد المغرب القديم

The first Christianity And Harbingers of Religious Conflict in Ancient Maghreb

بعيطيش عبد الحميد*[1]

[1]قسم التاريخ والآثار ،جامعة باتنة1 (الجزائر)، massil6@yahoo.fr

تاريخ الاستلام:2020/11/06 **تاريخ القبول: 2020/12/08**

ملخص:

عرفت شعوب بلاد المغرب الديانة النصرانية في القرون الأولى بعد ميلاد المسيح عيسى عليه السلام، فعكفوا على الاستماع للإنجيل وفهمه وتجاوبون مع البشارة لا لسبب السلطة الرومانية وإنما على الرغم منها، والدراسات تؤكد أنهم فقدوا من أجل النصرانية كل ما يملكون بما في ذلك ممتلكاتهم وحريتهم وحتى حياتهم، لذا كانت الديانة النصرانية إفريقية أكثر منها رومانية، وأصبحت من بين المكونات الأساسية للتراث الديني في هذه المنطقة، وهكذا تغلغل تأثيرها إلى أقصى الداخل حتى الصحراء حيث لم تكن هناك سيطرة رومانية، كما كان أوسع وأقوى انتشار لها تحت اسم الدوناتية (Donatism)؛ ويعد موضوع البحث ذو أهمية وهو يطرح إشكالية مركزية تهدف إلى التعريف بالديانة النصرانية وكيفية وصولها إلى بلاد المغرب، وإبراز مختلف مراحل انتشارها فيها، لذلك ارتأينا إلى تناول هذا الموضوع من اجل التطرق إلى الإرهاصات الأولى لظهور النصرانية وانتشارها وأهم الحركات التي ميزتها في بلاد المغرب القديم.

الكلمات المفتاحية: النصرانية؛ الدوناتية؛ الصراع الديني؛ المغرب القديم، اوغسطينوس

Abstract

The peoples of ancient Maghreb knew the Christianity in the first centuries after the birth of Jesus Christ, so they worked on listening to the Bible, understanding it and responding to the good news, not because of the Roman authority, but in spite of it, and studies confirm that for the sake of Christianity they lost everything they possessed, including their property, freedom and even their lives. And they strive to hear and understand the gospel, and have responded to the good news of the Lord. Therefore, the Christianity was more African than Roman, and it became one of the basic components of the religious heritage in this region, and thus its influence penetrated to the farthest reaches of the interior where there was no Roman control, as it was the widest and strongest spread of it under the name of donatism.

Keywords

Christianity; donatism ; Religious conflict; ancient Maghreb ; Augustine of hippo

* المؤلف المرسل

1- مقدمة

إن تاريخ انتشار النصرانية في أوساط الشعب ببلاد المغرب القديم ككل يعود إلى نهاية القرن الثالث وبداية الرابع الميلاديين، وهذا الانتشار ظل غامضا لاتسامه بالصمت منذ ظهوره في فلسطين، حيث يُعزى هذا الصمت حسب مؤرخي النصرانية في افريقية إلى انتهاج معتنقو النصرانية السرية التامة لاتقاء شر الاضطهاد من طرف السلطات الإمبراطورية الرومانية، وهناك من يرى أن انتقال بذور النصرانية الأولى في افريقية بفضل تنقل الرسول (الحواري) مرقس (Marcus) مع مجموعة من تلامذته حيث تركهم ينشرون تعاليم المسيح في أوساط المدن (المجتمع)، إلا أن تنظيم الحركة قد تم على يد مبعوثين من كنيسة روما بعد ذلك.

من المرجح أن العقيدة النصرانية بدأت تنتشر في ضواحي وأرياف المقاطعات الرومانية ببلاد المغرب عموما خلال القرن الثالث الميلادي، ومنه يرجع معظم الباحثين إن انتشار النصرانية في المنطقة يمكن حصرها في الوضعية الاقتصادية والاجتماعية المزرية التي مرت بها، وفي الفراغ الروحي الذي حاولت السلطة الإمبراطورية ملؤه بعبادة الإمبراطور، اضافة إلى مبادئ التسامح والعدل والمساواة والتآزر والمواساة، وهذه المبادئ التي ترجمها دعاة النصرانية وجدت الصدى الكبير والأثر العميق في نفوس المحرومين والمقهورين فاستجابوا وانقادوا لها.

وتذكر المصادر أن نصارى بلاد المغرب القديم عاشوا جنبا إلى جنب مع الوثنيين، وكثيرا ما وجدت أمكنة اجتماعات النصاري الحجرية في المدن إلى جانب مزارات الآلهة أو قبالة المعابد الوثنية، كذلك فان بيوت النصارى كانت موزعة بين جيرانهم الوثنيين ولم يفكر هؤلاء قط في الانعزال وإقامة أحياء خاصة بهم؛ ولم تتميز الجماعات النصرانية عن المجتمع الوثني بمواقعها الطبيعية أو المادية ولكنها تميزت عنها بطبيعة وأسلوب الحياة التي تحياها، فقد شقوا طريقهم مع جيرانهم الوثنيين بجهد وهذه هي المحبة التي كانت تحثهم على التكلم عن خلاص المسيح كلما سنحت لهم الفرصة، وقد اظهر النصارى حقيقة إيمانهم بنوعية الحياة التي عاشوها فلم يكونوا يخجلون بنصرانيتهم بل كانوا مستعدين ليشرحوا الحق الإلهي لكل من يصغي.

من هذا المنطلق يعتبر موضوع البحث ذو أهمية وهو يطرح إشكالية مركزية تهدف إلى إبراز مراحل انتشاره النصرانية في سمال افريقيا والإرهاصات الأولى لظهورها وتوسعها قبل ان تصل الى أوربا، وأهم الحركات التي ميزتها.

2- النصر انية ببلاد المغرب القديم:

عندما اعتلى قسطنطين العرش (323م-337م) كانت الديانة النصرانية قد تغلغلت في كيان الإمبراطورية منذ حوالي ثلاثة قرون حيث تم السماح للنصارى بإقامة شعائرهم الدينية أو بما يسمى عصر السلام الديني؛ وابتداء من سنة 312م، أباح لهم الإمبراطور حرية بناء مبانٍ دينية جديدة والمتمثلة خاصة في البازيليكات (basilics) بل وجعل خزينة الدولة تشارك في بناء عدد منها. (فرج، 1987، ص 19)

فبعدما انتصر قسطنطين على منافسيه في معركة جسر ميلقيان 313م (Milvian Bridge) أعلن الإمبراطور مرسوم ميلان المشهور المعروف بمرسوم التسامح الذي يدعو إلى السلام والهدوء في الكنيسة النصرانية، وواقع الأمر أن قسطنطين لم ينفرد بإصدار هذا المرسوم بل شاركه في مسؤوليته شريكه في الحكم الامبراطور ليسينوس (Licinius) (308-324م)، وقد استقبل هذا المرسوم على انه

قانون أساسي من قوانين العالم الروماني. (Rivière, Y., 10, 2002, pp 327-361)، ومن هذا المرسوم **«... عندما تقابلنا نحن قسطنطين أغسطس ليسينوس أغسطس في ميلان مكللين بالرعاية والعناية أخذنا نبحث في جميع الوسائل الخاصة بالصالح العام لرعايانا، ومن هذه الوسائل التي تهم الكثيرين وتعود بالنفع عليهم مسألة حرية العقيدة، لذلك قررنا إصدار مرسوم يضمن للمسيحيين وكافة الطوائف الأخرى حرية اختيار وممارسة العقيدة التي يرتضونها، وبذلك نضمن رضا جميع الآلهة والقوى السماوية علينا، كما نضمن رضا جميع رعايانا ممن يعيشون في كتف سلطاتنا وهكذا قررنا عن ثبات وتعقل أن لا يحرم أي فرد كائنا من كان من اختيار النصرانية ديانة له، ولكل فرد الحرية في اختيار الدين الذي يناسبه، وبذلك نضمن استمرار تأييد الرب لنا بنفس الكرم والقوة اللذين تعودانا هما منه...»**. (سعيد عمران، د.ت، ص 39)

كانت هناك ثلاث فئات رئيسية حاضرة في الكنائس النصرانية، وكان البربر يشكلون الأغلبية، أما الفينيقيون الذين تزاوج البربر معهم فكانوا موجودين في المدن والحواضر وكانوا يمثلون الطبقة الحرفية والتجار، وكان الرومان يمثلون الطبقة الأرستقراطية، وقد شكل هؤلاء نخبة من أهل المدينة وصفوتهم، لكن الكنيسة جمعتهم إخوة وأخوات في عائلة تخطت حدود العرقية واللغة فكانت بينهم علاقة صدق وعطف.

بدأ التنظيم الكنسي سواء الخاص بحدود المقاطعات أو الخاص بالهيكلة الادارية في افريقيا منذ القرن الثالث ميلادي (Leclercq, H., T1, 1904, p 44)، ففي هذه الفترة كانت افريقيا مقسمة إلى ثلاث مقاطعات: المقاطعة الافريقية (تضم الطرابلسية والبيزاكينا والبروقنصلية)، ومقاطعة نوميديا، ومقاطعة الموريطانياتان، حيث ذُكر هذا التقسيم وتبناه الأفارقة في الاجتماع الكنسي الذي انعقد في قرطاجة سنة 256م، ثم أحدث الامبراطور ديوقلسيانوس (Gaius Aurelius Valerius Diocletianus Augustus) (284-305 م) نظام الاسقفية الذي تبنته الكنيسة فيما بعد في تنظيمها الداخلي والخارجي. (Leclercq, H., T1, 1904, p 44).

في نفس السياق، في منتصف القرن الثالث الميلادي وجدت وثائق تعود إلى مرحلة القديس كبريانوس (Cyprianus (Caecilius) Caecilianus Thascius) تدل على وجود كنيسة منظمة مهيكلة من خلال كثرة الأبرشيات المنتشرة في افريقيا، والتي أثرت بصورة عميقة في المجتمع المحلي وخاصة في الأشخاص المهمين وأسياد القوم. (المبكر، 2004، ص ،150)

تميزت الاضطهادات الإمبراطورية بلونين في افريقيا ضد النصارى، اللون الأول المتمثل في الاضطهاد الذي مارسته السلطة الإمبراطورية الوثنية، واللون الثاني المتمثل بدوره في الاضطهاد الذي مارسته السلطة الإمبراطورية النصرانية على المنشقين الذين أصبحوا هراطقة في نظرهم. (المبكر، 2004، ص ،335)

اشتدت الاضطهادات في بداية القرن الرابع ميلادي (Clausse, G., T1, 1893, pp. 28-29) ، وخاصة في الفترة الممتدة من 303 م إلى 305 م، في المقاطعات الإفريقية بسبب امتناع جماعة من النصارى تسليم الكتب والرسائل المقدسة (Danielou, J ; Marrou, H. I., 1963, p 285) حيث أمر الإمبراطور ديوقلسيانوس بتتبع كل رجل دين وتجريده من كل الوثائق المقدسة المتمثلة في الرسائل والكتب ثم حرقها، وتهديم المباني الدينية وقتل كل أسقف يحاول المقاومة أو الدفاع عن أماكن العبادة، كما حدث في كيرتا (قسنطينة) حيث تم حرق الكتب المقدسة فيها (Ballu, A., 1897, p 35.) ، بعد ذلك استدعائهم

تحت التهديد بالموت في حالة رفض تقديم الأضحيات إلى آلهة الإمبراطورية كبرهان لولائهم المطلق للإمبراطور والإمبراطورية. (Lancel, S., 2003, p 214).

3- أرنوبيس ودفاعه عن النصرانية:

ففي عام 295م أو 296م اندهش نصارى سكان المقاطعات عن الإعلان المفاجئ لأرنوبيس اهتداءه إلى الإيمان النصراني ولم يصدقوا ذلك، واعتقدوا أن الأمر ينطوي على مشاورة مخادعة بهدف التسلل إلى داخل المجموعة النصرانية بغية تخريبها، كما رفض ناظر الكنيسة أن يعمده باسم المسيح، ولكن ارنوبيس كان مخلصا من دون أي شك، ولإثبات ذلك بدأ يكتب ويدافع عن النصرانية ضد الوثنية وكان الهدف هو تأكيده للنصارى حقيقة اهتداءه. (Monier, M.F., 1991, pp 46, 47)

كان أرنوبيس بربريا وهو يفتخر لهذا الانتماء وقليل ما كان يحبذ السلطة الرومانية، تحدث عن آلهة الوثن القديمة ببلاد المغرب القديم من منطلق معرفته الشخصية بها ساخرا بالآلهة الرومانية المستوردة والتي تبدوا رديئة وفي أدني منزلة من ذلك (Monier ,M. F., 1991, p48) ، كما يهوى حنبعل القرطاجي (Hannibal)، وفي مجال المناظرات الدينية كان يقف دائما موقفا معارضا من جماعة النصارى في مسقط رأسه، كما كان يهتم اهتماما عميقا بشتى المسائل الأدبية والأخلاقية، وهذا كله دفعه إلى البحث في كل ما يصادفه من فلسفات وديانات.

4- عصر القديس أوغسطينوس:

ولد أوغسطينوس في 13 تشرين الثاني/ نوفمبر سنة 354م بمدينة تاغست (سوق أهراس)، وكان أبوه وثني يدعى باترسيوس يعمل موظفا في إحدى المجالس، نال سر المعمودية قبيل وفاته سنة 381م، وكانت أمه تدعى مونيكا وهي نصرانية شديدة التقوى، كان طموحها هي وزوجها منصبين على ابنهما الذي يملك مواهب فريدة ويأملان له مستقبلا زاهرا. (اندريه جوليان، 1978، ص 305).

وكان رئيس الأساقفة هو القديس أملارواس Sant Amlroise) ، وقد أثرت خطب هذا القديس تأثيرا عميقا في نفس أغسطينوس وأعجب بفصاحته، ونتيجة هذا أصبح يشعر بميل وانجذاب نحو المذهب الكاثوليكي، وبدأ بعد ذلك بإصلاح سلوكه وتهذيب حياته، واهتدى إلى عقيدة أمه القديسة مونيكا. (منصور، 1991، ص325)

وقد رقاه أسقف عنابه " هيبو " إلى درجة القسيس سنة 391 م رغما عن امتناعه، ثم اتخذه معاونا له سنة 396 م، وبعد ذلك بمدة قصيرة خلف أسقف هيبو على الكرسي الأسقفي، وكان كثيرا ما يزور صديقه الأسقف أوريليانوس (Aurélien) جثليق أساقفة قرطاج أي متقدم الأساقفة. (كرم ،1965، ص ص26،27)

أشتهر القديس أوغسطينوس بنشاطه وبمجهوداته الجبارة التي كان يبذلها لإرجاع وحدة الكنيسة بمقاومة النحل وجميع أسباب الانقسام، فهو الذي تسبب في عقد مجمع قرطاج سنة 411 م، والذي حضره مئات من الأساقفة الكاثوليك والدوناتيين انتهى باتفاق وقع إثباته في دستور 30 جانفي 412 م، وينص هذا الدستور على وجوب رجوع المنشقين القاطنين بالبيروقنصلية في حجز الكنيسة وإلا يقع الحكم عليهم بمصادرة أملاكهم. (العروي، 1996، ص66)

لقد أتصف أغسطنيوس بصفات نادرة، فكانت له روح متحمسة لطيفة وإرادة قوية ومزاج الزعيم وسخر هذه الخصال لخدمة الكنيسة، وكانت له مرونة الدبلوماسي، أما مواهبه الفكرية فهي متنوعة تنوعا غريبا، فقد جعلت منه خطيبا وكاتبا من طراز عال، فلم يتح للنصرانية أن رزقت زعيما في مرتبته قط. (أندري جوليان، 1978، ص308)

ترك أغسطنيوس مؤلفات جمة تتجاوز 200 رسالة و 500 موعظة، و 113 ملفوفة مصوغة باللاتينية ضاع قسم كبير منها، اشتهرت كتاباته بالمتانة والبلاغة وقوة البيان، وتنقسم تلك الآثار إلى قطاعات أهمها القطاع الديني الذي يطغى على سائرها، ومن أهم مؤلفات القديس أوغسطنوس سيرته " اعترافاتي (the confessions) التي أصبحت بمثابة البداية الحقيقية للكتابة الأوطبيوغرافية في الفكر الإنساني، ويعني هذا أن هذا المؤلف هو أول كتاب وصل إلينا في باب السيرة الذاتية الروحية ذات الطابع الديني الذي يشتبك بالطابع التاريخي، (لوديي، 1990، ص ص 3-5) حيث يقدم فيه الكاتب اعترافاته بكل صدق وصراحة، ويفصل حياته الغريبة ويوضح انسياقه وراء الأهواء والشهوات، ولاسيما في قرطاج حيث ولع بالمسرح والحب والجنس، كما بين لنا كيف عرف طريق الله وكيف انتقل بعد ذلك إلى الفكر النصراني، كما يكشف لنا عن تصوره وموقفه من الصراع العقائدي والاجتماعي والتاريخي الذي كان يعيش فيه أوغسطينوس إبان مرحلة الصراع النوميدي الروماني، ويدعو الكاتب في الأخير في هذا المؤلف الديني إلى سلام الروح ومحبة الإله والارتماء في أحضان الرب من أجل الاستراحة النورانية.

وتعني الاعترافات في المفهوم النصراني بوح الإنسان واعترافه للراهب بأخطائه وذنوبه قصد الحصول على العفو، ويسير الكتاب في هذا المنحى الاعترافي النصراني، فيعترف أوغسطينوس بكل جرأة بأخطائه ومجونه من أجل الظفر بالتوبة والغفران الرباني، ومن المعروف أن هذا الكتاب كتب بين 391 و400م في حياة القديس أوغسطينوس. (Prawan , P., pp 52-54)، كما كتب مجموعة من المؤلفات للرد على البدع النصرانية، منه كتاب "الرد على البيلاجيين" و "الرد على الدوناتيين" و "الرد على رسالة باتليون الدوناتي" في سنة 402م، "في المعمودية" كما رد أيضا على الأريوسين، إذ كانت الأريوسية آنذاك نشطة وتستحوذ على كثير من العقول. (بدوي، 1974، ص249)

كما اشتمل كتابه الآخر " مدينة الله" (City of God) على اثنين وعشرين فصلا، أراد فيها صاحبها أن يبين فضل الآخرة على الحياة الدنيا ضمن منظور عقدي نصراني، كما يؤول فيه كتاب الإنجيل من خلال اجتهاداته وتجاربه الدينية والروحانية متأثرا في ذلك بالفلسفة الأفلاطونية والأفلاطونية المحدثة. (زيغور، 1983، ص 109)، ويحوي المؤلف آراء عميقة في مجال فلسفة التاريخ وتأريخ اللاهوت وتفسير الإنجيل وتأويله، وقد انتشرت آراؤه الدينية والفلسفية بين المفكرين واللاهوتيين النصارى فيما بعد، وعرفت تصوراته الدينية وتفسيراته المذهبية بالنظرية (الأوغسطينية)؛ اهتم النصارى فيما بعد بأفكار أوغسطينوس التي طرحها في كتابه "مدينة الله" وخاصة فكرة الخطيئة، وفكرة الحكم الحر، ولاهوتية التاريخ ، ولابد أن نذكر أن أوغسطينوس قد حارب الدوناتية والآريوسية وكل الدعوات الوثنية والدينية المنحرفة، وحاول في كتاباته جاهدا التوفيق بين العقل والإيمان. (زيغور، 1983، ص 109)

كما ترك لنا كما هائلا من الكتب أهمها وأشهرها على الإطلاق "كتاب الثالوث" كتبه سنة 415 م، و" كتاب العقيدة النصرانية" و" مراسلات مع القديس جيروم"، وهناك كتب أخرى نذكر منها: " في البدع " سنة 429 م، " في الموسيقى"، في " اللطف وحرية الإرادة " سنة 426م.

5- الحركة الدوناتية:

لم تظهر الحركة الدوناتية (Donatism) ببلاد المغرب القديم وبالضبط في نوميديا إلا عندما تبنى الإمبراطور الروماني تيودوز (Theodose) (379-395 م) العقيدة النصرانية دينا رسميا للدولة الرومانية منذ 391م فاستغل دوناتوس الفرصة فأسس مذهبا نصرانيا إفريقيا مستقلا ألا وهو المذهب الدوناتي، فأقبل الأفارقة على اعتناق هذا المذهب الجديد للتخلص من نير الاستعمار الروماني ومن الظلم والعبودية والذل، (كنينج، د.ت، ص24) وقد ظهر هذا الانشقاق جليا عندما توفي مطران قرطاجة منسوريوس (Mensurius) وعُين مكانه شماسه كائيكيليانوس (Caecilianus) (Lancel, S , Mattei, P., 2003, pp 10-11) الذي كان يخدم إلى جانبه.

بيد أن هذا التعيين تم بدون حضور كبير أساقفة نوميديا مما اعتبر من طرف النوميديين خرقا للأعراف والتقاليد المعمول بها في افريقيا، فما كان على جثليق نوميديا سكوندينوس (Secundinus) (Episcopus primae sedis) أن شد رحاله إلى عاصمة الأسقفية للطعن والاحتجاج على الخرق للتقاليد الكنسية، وسار معه عدد من الاكليروس النوميدي، فلما وصلوا إلى قرطاجة طعنوا في تعيين كائيكيليانوس لكونها تمت على يد الأساقفة المتخاذلين إبان الاضطهاد، ووجهوا أصبع الاتهام على الخصوص إلى فيلكس (Felix) أسقف مدينة ابثوقني (Abthugni) وهي هنشير السوار جنوب مدينة زغوان بتونس، حينها عينوا أسقفا منافسا لكائيكيليانوس هو مايورينوس (Maiorinus) الذي لم يشغل هذا المنصب إلا قليلا ثم قضى نحبه، فخلفه دوناتوس (Donatus) الملقب بالأكبر وعليه تسمت عقيدة الدوناتيين، (Danielou . J ; Marrou. H. I., p 286) ومما زاد الخلاف عمقا هو تحيز الإمبراطور للكنيسة الكاثوليكية باتخاذها دين الدولة وبمنحها امتيازات لم تكن تحظى بها، وحُكم على دوناتوس سنة 313م بأنه منشق ويجب أن يتوب هو وأتباعه وان يدخلوا بعد أن يُعمَّدوا من جديد في الكنيسة الكاثوليكية الأرثوذكسية، وان رفض فانه يعتبر مناوئاً للكاثوليكية وبالتالي للإمبراطورية. (Lancel, S. ; Mattei, P., pp 10-11)

ففي مناظرة قرطاجة أكد الدوناتيون على وجود شخصين يدعيان دوناتوس: دوناتوس أسقف كازاي نيقراي (Casae negri) بنوميديا، وهو الذي صدر في حقه أول حكم ضد الدوناتية سنة 313م، ودوناتوس الأكبر، الزعيم الدوناتي المشهور الذي قاد كنيسته بعدئذ والى غاية حوالي 355م، لكن جل الباحثين يتفقون على شخص واحد يحمل هذا الاسم، (المبكر، 2004، ص309)

امتازت الحركة الدوناتية بأنها ذات صبغة بربرية متمردة عن الحكم الروماني وتعاليم الكنيسة الرسمية، وعليه فإن دوناتوس كان يدعو إلى مذهب ديني جديد يقوم على إقرار المساواة بين الناس ويعمل على مساعدة الفقراء ولا يعترف إلا بسلطة الإله الخالق، وكان يأمر البربر بطرد كبار الملاك من أراضيهم وأصحاب النفوذ من المسحيين الكاثوليك من بلادهم. (الجراري، 1982، ص27)، وقد انتشرت الدوناتية في الكثير من الولايات والمماليك البربرية وخاصة ولاية نوميديا وشكلت ميدانيا مجموعة من التنظيمات العسكرية التي كانت تهاجم مزارع الأرستقراطيين الرومان لتحرير عبيدها واقنانها المظلومين. (المدني، ص114)

لكن على مدار قرن من الزمن، اضطهد معظم الأباطرة الكنيسة الدوناتية، وتواصل الصراع بين الفئتين في الدفاع عن وجهة نظره، فقد كانوا يسعون بكل قواهم أن يظهروا عيوب بعضهما من خلال الحرب الفكرية خاصة المتمثلة في التأليف، لان الدوناتيين كانوا في اغلب الأحيان يرفضون مناظرة الكاثوليك

مباشرة لأنهم في نظرهم غير آهلين لذلك، وحتى في مناظرة قرطاجة سنة 411م. (المبكر، 2004، ص 310)

أثناء هذه الفترة التي دامت فيها الاضطهادات قرابة قرن من الزمن، برزت مجموعة من الناس في شكل جماعات مسلحة أطلق عليهم اسم الدوارون (Circumcelliones)، الذين قاموا بنشر الخوف والهلع بحرق المدن انتقاما من التيار الكاثوليكي المتواطئ مع سلطة الإمبراطورية (Mandouze, A., 1985 .pp. 193-217).

غالبا ما كانت الصراعات قوية بين التيار الدوناتي والكاثوليكي خلال القرن الرابع ميلادي في مقاطعة نوميديا والتي تعتبر بحق معقلاً للدوناتيين لان لها جذوراً تاريخية، وتعتبر مقاطعة زراعية ريفية بالدرجة الأولى مما يتطلب تنظيم العمل في حقولها من عمل دائم إلى مؤقت حسب الفصول، مما ساعد على ظهور فئة الدوارين (Circumcelliones) الذين جندوا أنفسهم للسطو على الملاك الكبار فقط، لاحتقار كبار الملاك للطبقة الفقيرة الكادحة التي تعيش في الأرياف بالقرب منهم أو في ضيعاتهم واستغلهم التيار الدوناتي لتكوين جيشه في حالة حدوث ضغط أو إخماد تمرد من طرف الجيش الإمبراطوري.

فقد اغتنم هؤلاء الدوارون الذين نشطوا في شكل حركة في افريقية خلال القرنين الرابع والخامس ميلاديين، وخاصة في مقاطعة نوميديا في المنطقة الواقعة شمال الاوراس وجنوب مدينة عنابة (أندري جوليان، 1978، ص 297)، فهي فئة استخدمت من طرف التيار الدوناتي لتسوية وضعيتهم الاقتصادية والاجتماعية، لأنهم كانوا يُرون كأنهم أبطال ومجاهدين في أعين التابعين للتيار الدوناتي، خاصة وأنهم التقوا مع الدوناتية في الأهداف العامة وكانوا يطلقون عبارة " ولله الحمد (Déo–Laudes) وهي العبارة التي يذكر في شأنها القديس أوغسطينوس أنها كانت تثير رعبا في نفوس الأعداء أكثر من زئير الأسد.(صفر، ج1 د.ت، ص 364)، هذا الصراع الدائم بين الدوناتيين والسلطة الإمبراطورية جعل من التيار الدوناتي حليفا للمماليك المورية سواء في موريطانيا أو في نوميديا. (Duval, N, Vol. I., 1989, p 350)

ونظرا لحدة الصراع بين الطرفين الذي مزق الكنيسة الإفريقية رأى الإمبراطور هونوريوس (Flavius Augustus Honorius) (393-423م) أن يُصدر مرسوما في سنة 410م يدعو فيه للتسامح مع المنشقين، وبعد سنة أُبطل سريان مفعول هذا المرسوم تحت إلحاح الأساقفة الكاثوليك خوفا منهم أن يستعيد الدوناتيين قوتهم وينافسونهم في المجال الديني واستحواذ أفئدة الناس، فأمر الإمبراطور بعقد اجتماع كنسي سنة 411 م لِفَض هذا الجدال في قرطاجة بإدارة الوكيل ماركيلينوس بصفته مفتش إمبراطوري (Imperial inspector)(Danielou, J ; Marrou, H., 1963, I, p 28)

بعد النقاش الحاد والعنيف بين الطرفين حكم ماركيلينوس على المذهب الدوناتي بالهرطقة (Heresy)ويجب إدانته، وفي سنة 412م استخلص الإمبراطور الخلاصة وأمر المنشقين والهراطقة (الدوناتيين والاريوسيين وحتى الوثنيين) للدخول إلى الكنيسة الكاثوليكية وإلا ستصادر أملاكهم ويعاقبون بالتعذيب والموت أو النفي. (Chastagnol, A., 1976, pp 42, 43)

لقد عانت مدن مقاطعة نوميديا كمدينة ثاموقادي مثلا من هذه الفتنة الدينية، ولم تنته إلا بمجيء الإسلام إلى إفريقيا، تحول الصراع الديني الدوناتي إلى سياسي وأرادوا بعد أن حاربهم قسطنطين وخلفاؤه من بعده الانفصال عن باقي الإمبراطورية وحاولت مساعدتهم في ذلك القبائل المورية التي أرادت الاستقلال، ويعتبر هذا الصراع من أسباب ضعف الإمبراطورية (Ballu, A., 1897, pp 36,37) ورغم

محاولات الأباطرة لحل هذا النزاع الطائفي، فان أنصار كل اتجاه قد تمسكوا بعقيدتهم ومبدئهم واستمرت الانقسامات على حالها، وامتد الصراع الديني ليتحول إلى صراع سياسي لمحاولة الحصول على استقلال سياسي.

وفي هذا الصدد نشير أنه سقط ضحايا كثيرون نصارى ودوناتيين من أجل الدفاع على مبادئ الديانة النصرانية التي حاول الأباطرة الرومان أن يسخروها لخدمة مصالحهم السياسية التي تهدف إلى التحكم في المنطقة المغاربية؛ وهنا نورد مقولة القديس بيتيليانوس (Petilianus) الدوناتي أسقف مدينة "كيرتا" في الرد على أصحاب الكنيسة الكاثوليكية الرسمية وذلك بنص من الإنجيل، وأن الكتاب المقدس يذكر في نصوصه: **" لا تقتل أخاك و أنتم قتلتمونا، ولا تأخذ متاع غيرك و أنتم نهبتم أموالنا وأملاكنا واعتبرتمونا ملكا لكم"**. (بوكبوط، 2002، ص76)

وعلى نفس المنوال يذكر أصحاب الكنيسة الكاثوليكية استنادا إلى كتاب الإنجيل (**أتركوا الشيلم ينمو إلى جانب القمح حتى يحين وقت الحصاد)** كما يذكر في نفس المنوال غودونتيوس (Goudentius) أسقف مدينة تاموقادي وهذا كان معاصرا للقديس أوغسطينوس (**أفضل أن أحرق مدينتي كمسيحي على أن أسلم نفسي للقائد العسكري الذي كان مكلفا من قبل الإمبراطور الروماني).** (بوكبوط، 2002، ص77)

6- القديس أوغسطينوس والحركة الدوناتية:

لم يكن صراع أوغسطينوس مع الدوناتيين أو الدوارين في الحقيقة صراعا دينيا كما يبدو ذلك على مستوى السطح، بل كان صراعا سياسيا واجتماعيا بين أنصار الرومنة والتطبيع مع الرومان ويتزعمهم في ذلك القديس أوغسطينوس، وأنصار الثورة الراديكالية الذين يدافعون عن مصالح الأفارقة ويحاربون الإمبراطورية اللاتينية وعملائها المهادنين الخونة وكل الجواسيس الذين يسخرون من أجل خدمة النظام الروماني ودعم قواته المتوحشة.

ويمثل هذا التيار الثوري القائد الديني القديس دوناتوس (Donatus)، فأيقن أوغسطينوس على أنه قد حان الوقت للوصول إلى تسوية ما أو تفاهم، ففي عام 393م رتب أوغسطينوس لعقد مؤتمر هيبو، وفي الواقع شدد أوغسطنوس على نقاطه الخاصة بحزم وهو كان لا يزال يأمل التوصل إلى اتفاقية أو معاهدة سلمية مع قادة الدوناتيين، وكان راضيا بتقديم التنازلات مثل الاعتراف بنظار كنيستهم وبالنظم التأديبية المفروضة على أعضاء كنيستهم، كما ألح على السلطات الرومانية ألا تعاملهم بقسوة وعنف، كما رحب بأي واحد منهم رغب في الانضمام إلى الكنيسة الكاثوليكية الرسمية. (شفيق، 1989، ص77).

7- نتائج الثورة الدوناتية:

من النتائج التي حققتها الثورة الدوناتية أن مقاومة الأفارقة في المنطقة ستتجاوز المقاومة العسكرية إلى نوع آخر من المقاومة تتمثل في النضال الديني والاجتماعي، وسيحارب البربر الإمبراطورية الرومانية النصرانية بنفس السلاح العقائدي للتخلص من التيار الاستعماري ومناهضة الاستغلال والاضطهاد، وستعمل الثورة الدوناتية على إشعال الكثير من الثورات والفتن وستساهم في ظهور الكثير من الجماعات المتمردة عن السلطة الرومانية وخاصة الثوار الدوارين الذين كانوا يقومون بنهب مخازن الحبوب بسبب الجوع، وقد ساهمت هذه الحركة في اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وتأجيج الصراع الديني وتناحر السلطتين الدينية والسياسية على المستوى المركزي في العاصمة الرومانية، وانبثاق الصراع العقائدي بين

الدوناتية والكاثوليكية وتهافت المغاربة على المذهب الدوناتي وأعطوا لكنيستهم صبغة قومية واضحة. (صفر، دت، ص366)

تسبب الانشقاق الدوناتي مجابهات دموية حيث قاد الجانب الكاثوليكي أوغسطينوس متكلا كليا على السلطة المدنية ومستفيدا من الرعب الذي استولى على كبار الملاكين، وبسبب ما احتوت عليه الحركة الدوناتية من أهداف ثورية واجتماعية انتصر أوغسطينوس سنة 412م لكنه لم يتلذذ بالانتصار إلا مدة قصيرة، حيث استولى الوندال على شمال إفريقيا سنة439 م وهم موالون للمذهب الاريوسي. (الكينج، دت، ص 26)، وعلى أي حال فقد استهدف دوناتوس مقاومة القوات الرومانية ورجال الدين الكاثوليك الذين كانوا يعترفون بشرعية الاستغلال، وعليه كانت الحركة الدوناتية حركة ثورية اجتماعية تؤمن بالتغيير الميداني وتحارب كل أشكال الرومنة والاستغلال الفاحش.

خاتمة

على الرغم إنتشار الديانات الوضعية أو بالأحرى الديانات المحلية ببلاد المغرب القديم عموما، والتي كان لها تأثير على نفسية الإنسان وحياته الروحية في هذه المنطقة إلا أن النصرانية وجدت مكانة هامة في وسط هذه الديانات الوثنية وكان للقساوسة والرهبان دور في نشر عقائد هذه الديانة.

كان أوسع انتشار للديانة النصرانية تحت اسم الدوناتية، هذه الحركة التي كان زعيمها دوناتوس الذي سعى إلى ترسيخ عقيدة كنيسته، وقد كان للدوارين علاقة بهذه الحركة وذلك لالتقاء أهدافهما العامة، وسعى كليهما إلى التخلص من النفوذ الروماني، وقد كان لأغسطينوس دور كبير في الرد على الدوناتيين متخذا في ذلك العديد من الأساليب من أجل الصلح مع دوناتوس رغم إصدار السلطة الرومانية الحكم على هذا الأخير بالإعدام إثر محاكمة قرطاجة سنة 412م.

- المراجع:

1. كرم يوسف، (1965)، *تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط*، دار المعارف، مصر.
2. بدوي عبد الرحمان، (1974)، *الموسوعة الفلسفية*، ج1، المؤسسة العربية للدرسات والنشر، ج1، ط1، المؤسسة العربية للدرسات والنشر.
3. اندري جوليان شارل، (1978)، *تاريخ إفريقيا الشمالية*، ج1، تعريب محمد مزالي وآخرون، الدار التونسية.
4. الجراري عباس، (1982)، *الأدب المغربي من خلال قضاياه وظواهره*، ج1، ط2، مكتبة المعارف، الرباط.
5. زيغور علي، (1983)، *أوغسطين مع مقدمات العقيدة النصرانية والفلسفة الوسطية*، ط1، دار اقرأ.
6. شنيتي محمد البشير، (1984)، *التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني*، الجزائر.
7. فرج وسام عبد العزيز، (1987)، *دراسات في تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية، الإمبراطورية البيزنطية من 324-1025م*، الإسكندرية.
8. أسد رستم، (1988) ، *الروم في سياستهم، وحضارتهم، ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب*، ج 1، بيروت.
9. شفيق محمد، (1989)، *لمحة عن ثلاثة وثلاثين قرنا من تاريخ الأمازيغيين*، ط1، دار الكلام، الرباط.
10. لودي عبد السلام، (1990)، *صراع أوغسطينوس، مطبعة كال أوف وهب*، ألمانيا، ط1.
11. منصور أنيس، (1991)، *الخالدون مئة أعظمهم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم*، ط8، المكتبة المصرية الحديثة، القاهرة.
12. العروي عبد الله، (1996)، *مجمل تاريخ المغرب*، ط5، المركز الثقافي العربي، بيروت.
13. عبد النور يوسف، (2002)، *كيف إنتشرت النصرانية*؟ (دروس من سفر أعمال الرسل) ، ج1، ط1، غال أوف هوب ستيلغار، ألمانيا.

14. بوكبوط محمد، (2002)، *الممالك الأمازيغية في مواجهة التحديات*، ط1، مركز طارق بن زياد، الرباط.
15. المبكر محمد، (2004)، *النصرانية والترومن في شمال إفريقيا القديم، من عهد ديوكليتيانوس إلى الغزو الوندالي* (284م-429م)، ج1، الرباط.
16. المدني أحمد توفيق، (د.ت)، *قرطاجة في أربعة عصور*، مطبعة تونس.
17. سعيد عمران محمود، (د.ت)، *معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى*، دار المعرفة الجامعية، مصر.
18. صفر أحمد، (د.ت)، *مدينة المغرب العربي في التاريخ*، ج1، دار النشر أبو سلامة، تونس.
19. كنينج العربي، (د.ت)، *في مسألة الأمازيغية (أصول المغاربة)*، ط1، مطبعة أنفوبرانت، المغرب.
20. Toulotte, P. (1892), *Géographie de l'Afrique chrétienne, Proconsulaire*, Rennes-Paris.
21. Clausse, G. (1893), *Les monuments du christianisme au moyen age, basiliques et mosaïques chrétiennes (Italie-Sicile*), T. I., Paris.
22. Ballu, A. (1897), *Les ruines de Timgad* (THAMVGADI), Paris.
23. Leclercq, H. (1904*), l'Afrique chrétienne*, T. I, Paris.
24. Danielou, J. (1963), MARROU, H. I., *Nouvelle histoire de l'église, I, Des origines à saint Grégoire le grand (604)*, Paris.
25. CHASTAGNOL, A. (1976), *La fin du monde antique. De Stilicon à Justinien (V siècle et début VI)*, Paris.
26. Mandouze, A. (1985), « *Les donatistes entre ville et campagne* », In 110 congrès national des sociétés savantes, Montpellier ; III colloque sur l'histoire et l'archéologie d'Afrique du nord.
27. Duval, N. (1989), *« L'évêque et la cathédrale en Afrique du nord* », In actes du XI congrès international d'archéologie chrétienne, Lyon, Vienne, Grenoble, Genève et Aoste, Vol. I., Rome.
28. Monier, M.F. (1991), *Pères de L'église latine, ancienne librairie*, éd 4éme, Paris.
29. Rivière, Y. (2002), « Constantin, le crime et le christianisme contribution à l'étude des lois et des mœurs de l'antiquité tardive », In An Tard.
30. Lancel, S. ; MATTEI, P. (2003), *Pax et Concordia, chrétiens des premiers siècles en Algérie (III-VII siècles)*, Alger.
31. Lancel, S. (2003), *L'Algérie antique, de Massinissa à saint Augustin*, Paris.
32. Prawan, P., *la vie de saint Augustin*, ed- de sruil, Paris.